ASJP Algerian Scientific Journal Platform
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/821
ISSN 2477-9857 E-ISSN 2800- 0919 "Assiaq" scientific journal مجلة "السياق"
جامعة غرداية University of Ghardaia
المجلد: 08 العدد: 01(2023) ص18/25

وادي قير، ومنظومة القيم في شعر عبد الرزاق داودي

Guir valley and system of values in Abd al-Razzaq Daoudi's poetry

أحمد بن صيفية*
جامعة غرداية (الجزائر)
Bs.Ahmed47@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2023/04/14
تاريخ القبول:
2023/06/26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ منظومة
- ✓ قيم
- ✓ شعر

الملخص:

يهتم هذا البحث بدراسة منظومة القيم التي وردت في شعر عبد الرزاق داودي، وقد اقترنت بحديث الشاعر عن وادي قير، وموقعه الأثير في ذاكرة أبناء قبيلته.
لقد عبرت هذه الأشعار عن نوستالجيا غامرة تملكت الذات الشاعرة، مُشكلة مرثية زمن غابر سعيد مضى حاملا معه مُثله الغالية، التي أضحى يفتقدها الشاعر في حاضره الحزين.
اعتمد البحث منهجا وصفيا تحليليا من أجل الوصول إلى تحقيق أهداف الدراسة.

Article info

Received
……..
Accepted
……..

Keywords:
- ✓ *System*
- ✓ *Values*
- ✓ *Poetry*

Abstract :

This research focused on studying the system of values that appeared in the poetry of Abd al-Razzaq Daoudi, and it was associated with the poet's talk about Guir valley, and its cherished place in the memory of the people of his tribe.
These poems expressed an overwhelming nostalgia that possessed the poet, forming an elegy for a happy, bygone era that had passed, carrying with it his precious ideals, which the poet has become lacking in his sad present.
The research adopted an analytical descriptive approach in order to achieve the objectives of the study.

* الدكتور أحمد بن صيفية Bs.Ahmed47@gmail.com

ASJP Algerian Scientific Journal Platform
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/821
ISSN 2477-9857 E-ISSN 2800- 0919 "Assiaq" scientific journal مجلة "السياق"
جامعة غرداية University of Ghardaia
المجلد: 08 العدد: 01(2023) ص18/25

1. مقدمة:

يُشكل الماء عصب الحياة، وفي كلّ أرجاء البيئة الصحراوية الجزائرية المترامية الأطراف شغل موضوع الماء – بمصادره المختلفة– أهميّة بالغة, بما عبّر –بصدق شديد– عن دوره الحيوي الجوهري، وقيمته الغالية في حياة الإنسان البدوي الحريص على الوصول –قبل غيره– إلى مصادره النفيسة, والفوز بها في بيئة شديدة القساوة، لا تجود فيها السماء بغيوثها إلا لماما، وفيها يكون الحصول على الماء في صدارة كل الأولويات.

لقد كانت حياة البدوي حياة صبر، وكفاح، واجتهاد، وحل وترحال، وبحث دائم دؤوب عن مصادر الماء التي يروي بها ظمأ مواشيه وإبله، وأغنامه، ويجد حواليها المراعي الخصبة التي تكفيها، ولأجل هذا تحمّل المشاق، والمصاعب, يقول المثل الشعبي في منطقة متليلي، مُعبرا عن هذه الأهمية البالغة، التي تجعل الناس في سباق حثيث للوصول إلى مصادر الماء النفيسة الغالية: **"الأوّلْ يَلْقَى المَاء، وَالثَاني يَلْقَى الحْمَا (الحمأ)، والثَالثْ يقُول يَا حَسْرَاهْ كَانْ المَاء هْنَا..."**، وهذا المثل الشعبي تعبيرٌ رائجٌ في هذه المنطقة يُستدعى للتحفيز على الاجتهاد للوصول أوّلا، ودون ذلك يكون المرء في موقف متأخر، يدعو إلى الحسرة، والأسف الشديد.

انسجاما مع هذه الأهمية الوجودية للماء في ضمير كل فرد، من مجتمعات هذه البيئة، فقد أولى التعبير الشعبي اهتماما خاصا لهذا الموضوع الحيوي، وشغل الحديث عنه حيّزا واسعا من مساحة الموروث الشعبي، نلمس هذا في مختلف الفنون الإبداعية الشعبية، فإذا توقفنا عند فن الشعر ألفينا الشاعر الشعبي، باعتباره ابن بيئته مسكونا بموضوع الماء، إلى حد بعيد، ينبئنا عن ذلك ديوان الشعر الشعبي، الذي سجل في كثير من صفحاته، ما كان يمور في أفئدة الشعراء من تعلّق بالغ بالماء، وإحساس كبير بأهميّته في كل شؤون حياتهم.

2. الحضور المائي في التراث الشعري العربي القديم:

الشعر الشعبي امتدادٌ للشعر الفصيح، وعلى هذا الأساس، فإنّه من المفيد تسليط الضوء –وإن كان ذلك على نطاق محدود– على الحضور المائي في التراث الشعري العربي القديم، من أجل معرفة جذور هذا الاتجاه الذي سلكه الشعراء الشعبيون، عند أسلافهم من وجوه الشعر العربي القديم، وهكذا فإذا عُدنا القهقرى إلى عهود غائرة في تاريخ الممارسة الشعرية العربية، ألفينا احتفاء الشعراء، واحتفالهم بالماء –على اختلاف مصادره– سُلوكا شعريا، مُتوارثا، فقد درج شعراء العربية على الحديث عن الأمطار، والأنهار، والغدران، والعيون، والينابيع، والوديان، وغير ذلك من تلك المصادر المائية، فإذا وقفنا على شعر المعلقات على اعتبار أنّه يمثّل النموذج الأرقى للقصيدة العربيّة في مرحلة متقدمة من عمر الشعر العربي، فإنّنا نجد فيه كثيرا مما يؤيد حديثنا في هذا الاتجاه، يقول «عبد الملك مرتاض»: " لم تخلُ معلقة واحدة من بواقي المعلقات، من ذكر المياه، أو الأمطار، والغدران، أو العيون، أو ما في حكمها، أو ما يكون مُلازما لها، أو ما يكون ذا صلة بها"(مرتاض، 2012، ص. 170)، ويُؤازر «مرتاض» حديثه بنماذج من شعر المعلقات، ويتوقّف عند صورة الحيّز المائي في شعر «لبيد بن ربيعة»، في حديثه الشهير عن الأطلال التي غمرتها السيول، فكشفت كثبان الرمال التي غطتها، بفعل الرياح، وعوامل الطبيعة، يقول «لبيد»(مرتاض، 2012، ص. 174):

وَجَلا السُيولُ عَنِ الطُلولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها

يشدّنا «عبد الملك مرتاض» في قراءته لهذه الصورة الرمزية، بما يمنحها من أبعادٍ أخرى تكشف فاعلية التأثير بين القارئ، والمقروء، يقول: " كانت الطلول مدفونة تحت الرمال، جاثمة تحت التراب، فكانت الذكريات معها مدفونةً، وكانت القلوب

من حبّها مشحونة، لقد كانت مغبّرّة، مُرَمَّلَة، مُتَرّبةً، لا تكاد تبدو للعين، فلمّا أصابتْها هذه السيول الجارفة، لمعَتْها، وأظهرتها فأمست كلوحة مكتوبة، تحدّد مَتْنَها أقلامُها بالكتابة فلا تمَّحِي ولا تزول" (مرتاض، 2012، ص. 139).

ومن أساليب القول الشعري، كان الدعاء بالسُقيا من أَجَلّ ما يُتوسّل به ، لتحقيق مُختلف أغراض القصيدة، يقول «بهاء الدين زهير»، في الحنين لديار الأحبّة (زهير، 1964، ص. 360):

سَقى اللَهُ أَرضاً لَستُ أَنسى عُهودَها ... وَيا طولَ شَوقي نَحوَها وَحَنيني

وحين يُلقى «لسان الدين بن الخطيب» في سجن المرينيين في فاس، يَفتقدُ عُهوده الجميلة في الأندلس، ويأخذه الحنين إليها كلّ مأخذ، وتدعوه لواعج الأشواق لتلك الأيام الخوالي، إلى الدعاء لتلك الأزمان بالسقيا، في حديث يفيض بعواطفه الجياشة، وأحزانه المتدفقة، يقول (ابن الخطيب، 1989، ص. 792):

جادك الغَيْثُ إذا الغَيْثُ هَمَى ... يَا زَمَانَ الوَصْلِ بِالأَنْدَلُسِ

لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلُمًا ... في الكرى أو خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

وفي غرض آخر، يقول «متمم بن نويرة»، في رثاء أخيه «مالك» (الصفار، 1968، ص. 112):

سَقَى اللهُ أرضاً حلّها قبرُ مالكٍ ... ذهابَ الغوادي المدجناتِ فأمرَعا

لقد كان حضور الماء في الشعر العربي مشدودا إلى خيوط قوية، ترتبط بالوجدان -أشدّ الارتباط- وتتّصل اتصالا وثيقا بأفانين الحنين، واللوعة، والاشتياق في أغراض الغزل، وقد تدعوه كذلك عواطف الأسى، والشجن، والبكاء، في أغراض الرثاء، والتفجّع، والتأبين، على النحو الذي وجدناه في رثاء «متمم» لأخيه «مالك».

على أنّنا لا نعدم الحضور المائي، في غير ذلك من أغراض الشعر العربي الأخرى، وهو ما يُثبت أنّ هذا التوظيف الفني كان وسيلة -شديدة الأثر- اتخذها الشعراء -مع اختلاف الأغراض- للوصول إلى تجسيد شعريّة النص الإبداعي، ومن أشهر الشواهد ما يتبادر إلى الذهن لأوّل وهلة، ما جاء في وصف الشاعرة الأندلسية «حمدونة بنت المؤدب»، لواد ظليل خصيب (المقري، 1968، ص. 288):

وقَانَا لفحةَ الرَّمْضَاءِ واد ... سَقَاهُ مُضَاعَفُ الْغَيْثِ العمِيم

حللنَا دوْحَهُ فَحَنَا علَيْنَا ... حُنُوَّ المُرْضِعاتِ على الْفَطِيمِ

وأرْشَفَنَا على ظَمإٍ زُلالاً ... يَرُدُّ الرُّوح لِلْقَلْبِ السَقِيمِ

يصُدُّ الشمس أنى واجهتْنَا ... فَيَحْجُبُها ويأذَنُ للنسِيمِ

يَرُوعُ حصَاهُ حالِيَةَ الْعَذَارى ... فَتَلْمس جانِبَ الْعِقْدِ النَّظِيمِ

وكذلك حين يمتدح الشاعر كرم أقوام في البادية العربية، يدعو لهم بالسقيا، ومن ذلك ما ذكره «الأصمعي»، في حديثه الشهير مع الأعرابي(**التليدي**، 2004، ص. 243)[1]:

قومٌ بنجدٍ قد عهدناهم ... سقاهم الله من النوْ

نَوْ تلألأ في دُجى ليلة ... مُظْلمةٍ حالكةٍ لَوْ

وهكذا تبدو التقاليد الشعرية -التي دأبت على استغلال كل ما يتعلق بالماء، ومصادره- ضاربة في جذور الشعر العربي، راسخة في ضمائر الشعراء، بالنظر إلى ما تحققه للقصيدة من أهداف مهما تعدّدت الأغراض، والأشكال، والفنون الشعريّة، حتى إذا استوى الشعر الشعبي شكلا تعبيريا مستقلا ألفينا فيه هذا

[1] **الذهاب جمع ذهبة وهي المطر الشديدة، الغوادي التي تأتي بالمطر، المدجنات: السحاب التي تغطي السماء وتملأها، أمرع: أخصب**

التوظيف بما يخدم أهداف القصيدة على النحو الذي وجدناه في أشعار «عبد الرزاق داودي»[2] في وادي قير[3].

3. وادي قير في شعر عبد الرزاق داودي:

شكّلت الأودية مناطق تجمعات البدو في مواسم فيضاناتها، يُقيمون على أطرافها أزمانا، يسقون من حياضها أنعامهم، ومواشيهم، حتى إذا نضبت مياهها ساروا في رحلات الأمل المستمرة إلى غيرها من المواطن الخصيبة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وقد حملت كثيرٌ من الأشعار الشعبية، أصداء عن هذه المواسم، وذكريات، عن تلك الأزمنة السعيدة الغابرة، وحديثا يملؤه الحنين، على شاكلة ما صدح به الشاعر «عبد الرزاق داودي»، في رقعة واسعة من ديوانه نذرها للحديث عن "وادي قير"، شكّلت بُكائية زمن غابر سعيد مضى بكل سحره، ولم تبق منه إلا ذكريات جميلة، بقيت محفورة في مُهجة الشاعر المحزون، تحكي قيمًا جليلة غالية لم تُبق عليها صروف الدهر، واختلاف الليل والنهار، يقول «بركة بوشيبة»: "وتجربة الشاعر عبد الرزاق في قصائده (القيريات) سجلٌ حافل بتراث القبيلة، وبكثير من القيم والعادات والتقاليد التي رسمت أخلاق القوم، ومثلهم العليا، وحافظت على توازناتهم الحياتية"(بوشيبة، 2020، ص. 7).

وهكذا يؤلف الشاعر –باقتدار– بين عالمين يبدوان متباعدين لأوّل وهلة، عالم حسي ملموس، هو ذلك الوادي الذي رحل أهله الذين أقاموا على ضفافه أزمانا طويلة جميلة، وعالم معنوي مجرد هو عالم القيم الغالية المفقودة، وقد رحلت –هي كذلك– في حاضره الحزين، وهنا تكتمل مأساة الشاعر، ويأتي القول الشعري، مصداقا لما يتأجّج في صدره من عواطف جياشة.

4.منظومة القيم:

"لقد أشكل الإنسان على الإنسان"، هكذا قالها «أبو حيان التوحيدي» منذ زمن قديم، في نقده العميق لطبيعة الإنسان المخاتلة المراوغة التي لا تدوم على حال، إلى حد يكون معه فهم الظواهر الإنسانية من أعسر الأمور، يُكابد الشاعر «عبد الرزاق داودي» هذه الحال، حين يرى الزمن، وقد تبدلت أحواله، وذوت قيمه السامقة التي حرص عليها الأسلاف، وتوارثوها كابرا عن كابر.

في ظل هذه الأزمة، ينصرف الشاعر عن الإنسان، ويلوذ بالطبيعة، يحكي لها همومه، ويفضي لها بمكنونات نفسه المكلومة، يتوجّه إلى وادي قير يُخاطبه، مخاطبة الصاحب لصاحبه، يطرح عليه أسئلته الملحة التي لم يجد لها إجابات تشفي غليله، والشاعر هنا إذ يتوجه إلى مخاطبة الوادي، فإنّه يفعل ذلك استنادا إلى موقع هذا الوادي في ضمير أبناء قبيلة "ذوي منيع" التي ينتمي إليها الشاعر، ومن منطلق أنّ هذا الوادي كان في سالف الدهر مُجتمعهم، وشاهدا أمينا على عهودهم الزاهية، وأمجادهم التليدة. فلطالما أقام القوم على ضفافه، وفيهم أهل النجدة، والكرم، والمروءة، والإقدام.

لقد تغيّر الثابت، وذهبت كل تلك المثل العليا الغالية، وذوت قيمٌ كانت تحفظ للقبيلة وجودها، وتقوي بها شوكتها.

تبدو علاقة الشاعر بوادي قير بالغة الحميمية، شديدة الإيحاء، يأسى لحاله، وقد أتى عليه حين من الدهر، فأصابه الجدب، وأتت عليه السنون العجاف، يقول الشاعر «عبد الرزاق داودي»(بوشيبة، 2020، ص. 25):

سلطان الويدان عيد لي كيف صار
وأنا شوفك بكاني

---

[2] **ولد عبد الرزاق داودي عام 1941م بالعبادلة في أسرة عرفت بنظم الشعر، يعتبر من أهمّ وجوه الشعر الشعبي في منطقة الجنوب الغربي الجزائري، له ديوان شعري صدر سنة 2020، جمعه الأستاذ بركة بوشيبة.**

[3] **هو نهر متقطع الجريان أو وادي يتدفق عبر مكناس تافيلالت والمنطقة الشرقية في جنوب شرق المغرب وولاية بشار في غرب الجزائر، تحدث عنه عبد الله بن محمد العياشي صاحب الرحلة العياشية، قال: "وهو وادي كبير أفيح، ملتف الأشجار، قليل الأحجار، كثير المرعى، غمض المسعى، يجتمع إليه السيول من مسافات بعيدة" ينظر: عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية، تح سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط1، 2006، ص76.**

بكاني هذا الوادي طال همه وزاد
رشاني بالتفقاد، ما زَّي لي صبر
وين امشاو أماليك فيك لا حي دار
لا فقيـر لا غاني؟

لقد مضى أولئك الذين عاشوا على أكنافه ردحا من الزمن، ولم يبق إلا أنين الذكريات يملأ الأرجاء، ويوقظ أسباب الحنين، ولواعج الأسى في وجدان الشاعر، الذي تردّدت في ثنايا قصائده، مفردات تمجد ذلك الزمن، وتحتفي بعهوده الغابرة.

لقد شكّل شعر «عبد الرزاق داودي» في وادي قير، استذكارا لقيم عزيزة غالية كانت سائدة، وإذا به يفتقدها أشد الافتقاد في حاضر مأزوم ألقت عليه بظلالها حضارة ماديّة مزيّفة سلبت من الإنسان إنسانيته، وسرقت منه أغلى صفاته الوجودية التي انطوت عليها حقيقته، وجُبلت عليها فطرته السليمة، وهكذا فإن قصائده "تتوالد معانيها عبر ثنائيات الثابت، والمتحول، الثابت الذي يحتلّ ذاكرة الشاعر، بل يصبحُ هاجسا مركزيا يقضّ مضجعه ليل نهار، فينعكس على حاضره المعيش، حتى لكأنّه يعيش ماضيا جميلا، ثمّ يُصدم بماض مأسوف عليه، ثابتٌ يراهنُ عليه في جل قصائده، لكنه لا يكون إلا بكاءَ رسم لقير وللوادي، وللمكان"(بوشيبة، 2020، ص. 9).

نستعرض فيما يأتي، قيمتي الشجاعة، والكرم، اللتين تغنى بهما الشاعر، بما عبرّ عن أشواقه الحثيثة، لماضيه الجميل، وبما جسد –في الوقت نفسه– اغترابه في حاضره الذي يعيشه، وقد تجرد من كثير من المثل التي تهفو إليها نفس الشاعر البدوي.

1.4 الشجاعة:

يستحضر «عبد الرزاق داودي»، قيمة الشجاعة، ويردّد حديث البطولات، ويشدو بذكريات الانتصارات التي سجلها أبناء قبيلته على مر الأزمان، يذْكر مواقفهم المجيدة، مع أحلافهم من القبائل، حين وقفوا في صف الشيخ «بوعمامة» في جهاده ضد الفرنسيين، وحين ناجزوهم في ساحات الوغى، يقول مادحا العروش الذين آزروا ثورته الخالدة (بوشيبة، 2020، ص. 50):

عـرش الأخمـاس سـتة مـا هـم شـي
وشعانبة رجال تناقر
وعمور والزوى وحميان مشاركين
معروف بوعمامة ثاير
قبايل العرب عانوه ونصرو الدين
فيه القديم واللي حاضر
مليون وخمسماية قاع مضحيين
ماتوا على العلم الناير
والله ينصر اللي يتمشى باليقين
وعاز الوطن ومكابر

وفي مواطن أخرى من ديوانه، يقف الشاعر على الوادي، وقد غمرته أحاسيس شتى، فبينما نجده، وقد أخذته الأشجان، حين ألفى الوادي، وقد لحقه الجدب، تهدهده الذكريات الجميلة، وتجول بخاطره بطولات المظفّرين الماضين من أسلافه، الذين وقفوا ذائدين عن حياضهم، مدافعين عن أرضهم، يستعير الشاعر صور الفرسان على صهوات الخيول، يُسمعنا صهيلها، ويُحدثنا عن صولات المقاتلين، وجولاتهم في ميادين القتال، والنزال، حيث لا يعلو إلا صوت البارود، وحمحمة الخيول، وكر الأبطال.

وفي هذا السياق يَذْكر هبّة قومه عن بكرة أبيهم، يوم نزل الفرنسيون، يدعوهم داعي الجهاد، وتدفعهم عزّة النفس الأبيّة، وتذكيهم أسباب الشجاعة، والإقدام، المتوقدة في الصدور، يقول (بوشيبة، 2020، ص. 9):

وَيْن عُـــربان وَيْـــن خْـيـــــام،
وين عرش الهمة،ما انهانو فرسانه
يؤكْـــدُوا في سَـــاعَة الأقْـراص
يؤكْـــدُوا في سَـــاعَة الأقْـراص
يؤكْـــدُوا في يَـــوْم البَـــارود
ما يفوتش التالي،سال عليهم ناس
يَـوْم طَاحْ الكُفْـر عَلَـــى النَاسْ

يَـوْم طَاحْ الكُفْـر عَلَـى النَاسْ
تْحَـزمُـولُـو رجال دوي منيع
نَاظُـو بالتَـالي بالخيْـل والتَـرّاس

ترنو إلى مُخيّلة الشاعر قوافل الشجعان من فرسان قبيلته الذين طبّقت شهرتهم الآفاق، وطفقوا يضربون في الأرض، يركبون الشدائد، والأهوال، يقول، مشيدا بإقدامهم (بوشيبة، 2020، ص. 46):

واعرين في البارود يهدوا الثنايا
نجموا يمينة ويسارى
حاربوا الكفر وما عزوا شي الحياة
فارقوك يا وادي الصحراء

نشهد في كل جنبات المتن الشعري عند «عبد الرزاق داودي»، ازدحام العواطف الجياشة المتدفقة في كيانه، وهي عواطف يُغذيها الحاضر بآلامه، وهمومه، من جانب، ولأجل هذا يسعى الشاعر في جانب آخر، إلى استحضار الماضي الجميل، ليكون له ملاذا يداوي فيه جراح نفسه المكلومة، وبهذا يؤسس وادي قير –كما يرى عبد القادر بن سالم– "في ذاكرة الشاعر عبد الرزاق داودي، ثنائيات الحضور والغياب، وهي ذاكرة جماعية يشترك فيها مع سكان قير، الفناء، والحياة، الأمل، والانكسار، الخير والشر" (بوشيبة، 2020، ص. 10).

2.4 الكرم:

تحتفي حياة العربي بقيم الجود، والكرم إلى حد لا يمكن معه تصور هذه الحياة دون هذا الخلق الإنساني الرفيع، وقد سجل التراث العربي القديم، مآثر لم يكن لها نظير عند الأمم الأخرى، أثبتت أصالة قيمة الكرم في نفوس العرب منذ غابر الأزمان، حتى عهودنا المتأخرة، ومن أشهر مآثر الكرم العربية ما كان من إشعالهم نار القرى لاستجلاب الأضياف، وعابري السبيل، وفي أكناف البيئة البدوية العربية ظلت هذه التقاليد حيّة متجدّدة يفتخر بها الشعراء، في المجالس، والجماعات.

يقول «عبد الرزاق داودي»، مُسائلاً وادي قير، عن الأجواد من بني قومه، ومستذكرا قصص الكرم، والجود، التي حفظوا بها صنيع آبائهم، منذ سحيق العهود (بوشيبة، 2020، ص. 25):

ويـــن مهـــارى تنقـــاد فـــي غمـــوق الحمـــاد
بهم يسروا جواد عابدين السهر
نَاسْ الجـُود والمعانـي
نَاسْ الجـُود والمعانـي
كرامين الضيفان ما يفوته العار
كرامين الضيفان ما يفوته العار

لقد كان زمنا زاهرا ذاك الذي عاش فيه هؤلاء الكرماء، زمنٌ لا يُخيّبُ فيه سائلٌ، ولا يُرد صاحب حاجة، ولا يُخذل ملهوف، لقد ظلت قصصهم العجيبة، مضرب الأمثال، تُروى كأنها من وحي الخيال، الذي لا يصدقه عاقل.

وحين يمضي هؤلاء يتغير حال وادي قير لغيابهم وهو مثلهم ذلك الوادي الجواد الكريم الخصيب الذي لم يكن يبخل على الناس بخيراته، ولكنّه يتحول إلى حال يأسف لها الشاعر، يقول (بوشيبة، 2020، ص. 38):

ويْـــن الأجْـــواد أَهْـــل الكَـــرامْ؟
عمروا هذ الوادي وفارقوه، وشيان زمانه
ويْـــن عُـــرْبَـــان وَيْـــن خْيَـــام
ويْـــنْ عَـــرْشْ الهمّـــة معلوم وين؟
ما انْهَـانُـــــــوا فُـــرْسَـانُـــه؟
كاسْـبين الخَـيْـــل والإبـــبَـــال
والغنم وفراسين مزربين في حَـد النظـرة
آلأَيـــمْـــنِـــي فِـــي ذا الحـــال
وين الخيام اللي كانوا معمرين الصحراء؟

لم تبق في أفياء هذه الصحراء الواسعة خيامٌ الظاعنين الكرماء من عرب البادية الذين يفزع إليهم الأضياف، وعابرو السبيل، حين تتقطع بهم الأسباب، لقد ذهب أولئك الأجواد الذين كانوا يملكون الإبل، والخيل، والأغنام الكثيرة، التي تملأ الآفاق، على مد البصر، رحلوا وغابت مُثُلهم الأصيلة، وقيمهم التي

نهضوا بها، وأقاموا عليها كل شؤون حياتهم، ولأجل هذا يرثي الشاعر لزمنه الحاضر الذي افتقد فيه كلّ هذه القيم الجميلة الغالية.

نُطالع في ديوان الشاعر، خصالاً أخرى كثيرة، أوردها الشاعر في حديثه إلى "وادي قير"، فقد ذكر من أخلاق قومه الأمانة، والصبر، والوفاء، ونجدة المستضعفين، ونصرة المظلومين، فقد كان بنو قومه أولي قوة، وبأس شديد، ينصرون كل من جاءهم مُستجيرا يطلب الأمان، وينشد الحماية، ويرجو كفّ الظلم، يقول(بوشيبة، 2020، ص. 32):

كل من قال يهز الراس
سولوا عن خصلات دوي منيع يوم الهدانة
ينعروا من جاهم غيظان
ما يفوتوه نهار الضيق يقلعوا عنه الحقرة
ينعروا من جاهم مظلوم
ينعروا من جاهم مظلوم
كل من نعروه وعزوه ما يعزوه بحيلة
ما يتلى مهموم

لقد كان في هذه الخصال لمفخرة لبني قبيلته التي حرصت على الامتثال إلى أصول الخلق الكريم التي تتطلبها أعراف البداوة وتقتضيها، أصالتها على امتداد الأزمان.

خاتمة:

تحدّث «عبد الرزاق داودي»، في بكائياته، عن ماضي وادي قير، وذكر كثيرا من القيم المفقودة التي كانت سائدة في الماضي، والتي إن شئنا تلخيصها، فإنّها يُمكن أن تجتمع في مسمى واحد، شاسع، يستطيع الوفاء بالتعبير عن كل أبعادها، وهو الفروسية العربية الأصيلة في أسمى تصوّراتها، بكل ما تحمله من معاني عديدة سامية، فالفروسية –كما تحدّث عنها «نوري حمودي القيسي»– هي مفهوم جامعٌ يعني "البطولة في الحرب، والبلاء في المعركة، والعفّة عند توزيع الغنائم، وإطعام الضيف، والذوذ عن المرأة، وتلبية دعوة المستغيث، واستجابة صرخة المنادي، إلى غير ذلك مما تستوجبه النخوة، ويتطلّبه الشعور الإنساني"(القيسي، 1964، ص. 29) ، ومن الواضح أنّ كل هذه الصفات النبيلة لا تزال ماثلة في ضمير الشاعر، يشده الحنين إليها، وتأخذه الذكريات إلى أزمانها البعيدة السعيدة.

إنّ كل تلك المعاني التي طرقها الشاعر جاءت لإثبات أصالة بني قومه، في سالف أيامهم، وهو بهذا يدعو النشء إلى ربط حاضرهم بماضيهم المشرق، والأخذ بأسباب العزّة، والسير على نهج أسلافهم، للوصول إلى تحقيق الغايات الكريمة السامية التي تعتز بها المجتمعات.

لقد أفلح «عبد الرزاق داودي»، في بناء مُنجزه الشعري الذي أقامه على فكرة مركزيّة، هي في جانب أوّل مخُاطبة الوادي، واستذكار عهوده الزاهية، والبكاء على راهنه الحزين، ومن جانب آخر تأسيس علاقة بين كلّ هذه الأفكار التي تزدحم في مخيّلته، ومنظومة القيم الغالية، الرفيعة التي ملأت أيّام ماضيه، غير أنّها ذوت في حاضره، وبقيت ذكراها تدغدغ، كل آن، وحين.

قائمة المراجع:

1. ابن الخطيب، لسان الدين، (1989)، الديوان ، تح محمد مفتاح، ط1، مج1، الدار البيضاء، دار الثقافة.
2. التليدي، محمد دياب، (2004)، إعلام الناس بما وقع للبرامكة من بني العباس، تح محمد أحمد عبد العزيز سالم ، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية
3. الصفار، ابتسام، (1968)، مالك ومُتمِم ابنا نويرة اليربوعي، دط، بغداد، مطبعة الإرشاد .
4. القيسي، نوري حمودي، (1964)، الفروسية في الشعر الجاهلي، دط، بغداد، منشورات مكتبة النهضة.
5. المقري، أحمد بن محمد التلمساني، (1968)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح إحسان عباس، دط، مج4، بيروت ، دار صادر.
6. بوشيبة، بركة، (2020)، ديوان الشاعر عبد الرزاق داودي، دط، وهران، دار القدس العربي.

7. مرتاض، عبد الملك، (2012): السبع المعلقات، تحليل انتروبولوجي/سيميائي لشعرية نصوصها، دط، الجزائر، دار البصائر للنشر والتوزيع.